

## مداد الزعفران

بقلم: صلاح الدين الغزال - ليبيا

كان من حسن حظي أنني كنت أحد المطلعين والمتابعين للكاتب محمد الأصفر.. وهو رجل عفوي جداً ولديه قلب لم يلتق يوماً بالحق.. وتشبيهاته غريبة ولديه مقدرة عجيبة على الكتابة التي أصبح أحد المشهورين بغزارتها.. تعرفت به في أحد النشاطات الأدبية بمدينة بنغازي.. وهو إنسان دمث الأخلاق يفتخر بالوضوح بأنه أحد المتحليين به.. كثير الإطلاع ويمتاز بالنهم الذي لا حدود له في القراءة حتى أصبح أحد معالم بنغازي الثقافية.. كثير التجول إلى الحد الذي تجده في كل مكان.. عرفت خطاه المكتبات ومؤسسات الإعلام وديار النشر ومقاهي الانترنت.. تمكن من الانتشار إلى الحد الذي أصبح من أكثر الشخصيات الليبية ذيوياً في مجال الإبداع الحقيقي بعد الكوني والنيهوم والفاخري والفراني والشلطامي حتى أصبح اسمه على كل لسان وتمكنت العديد من الصحف العربية من التطاول على سواها بنشرها لأعماله المميزة وتمكن في زمن قياسي قصير من وضع بصمته جنباً إلى جنب في أعظم الصحف مع كبار الكتاب في وطننا العربي التي يحتاج الكتابة إلى بذل زمن غير يسير حتى تتمكن هاماتهم من الوصول إلى رسائل قرائها.. وقد تحقق هذا النجاح جراء المسافات التي كانت عرضة للطّي من قبل قدميه الصلديتين وهو يلاحق المعرفة من مكان إلى آخر في بنغازي حيث يسير بقدميه المتعبتين قرابة العشر كيلومترات يومياً من الفندق البلدي إلى مؤسسة الإعلام إلى دار النشر مرتين في اليوم.. صباحاً ومساءً حتى أصبح أشبه بالموسوعة المتنقلة يوقر على متقفي بنغازي الجهد في متابعة أعمالهم فيخبر كل من يلتقي به عن محتويات كل صحيفة أو مجلة أو موقع إلكتروني.. يحمل حقيبته المليئة بالأعمال الأدبية والأقراص المرنة تحت إبطه وأما جيبه فتعج بقصاصات تحتوي على العديد من عناوين المواقع الأدبية.

كتب القصة القصيرة والمقالة والرواية وله بعض المحاولات الشعرية التي لم ترق له رغم روعتها بالإضافة إلى دخوله عالم المسرح بمسرحيته الرائعة (شيع وطّي) وهو اسم شعبي لإحدى ألعاب الأطفال العالمية حيث يجلس اثنان من الأطفال كل منهما على أحد أطراف الخشبة المثبتة من الوسط وتتم لعبة التوازن بينهما وقد تم عرضها لفترة طويلة.. حيث قام بدور البطولة فيها أحد أهم الشخصيات الخفيفة الظل في ليبيا وهو الفنان ميلود العمروني وقد لاقت رواجاً منقطع النظير وأصبحت حديث الناس في بنغازي تلك المدينة المرفهة الحس والتي عرف أهلها بخفة الروح واشتهرت بلقب (رباية الذايح) الذي نالته بسبب فتحها لذراعها أمام كل غريب وهي نسيج متناسق من كل سكان ليبيا.

وقد كان بسبب حبه الشديد للثقافة دور بارز على حياته الخاصة فهو يقطع ثمن الكتاب من قوت أطفاله.. لا تراه إلا قارئاً أو شارداً بذهنه ثم سرعان ما تخطر بباليه فكرة جديدة.. يشجع المواهب وينبذ الأذعياء الذين أصبحوا أشبه بالضبائب الذي يعيق النظر من أجل إخفاء تآلق الآخرين.. ليس له مكان معين للكتابة حيث ترى أنامله الخشنة تتشبهت بقلمه المنهك الذي ينفث صريراً على أوراقه الباهتة وسرعان ما يتولد عن ذلك بزوغ فسيفساء يعجز الخلاقون عن محاكاتها.

منذ عدة أعوام قام بمنحي إحدى مخطوطاته التي نشرت فيما بعد تحت عنوان (حجر رشيد) وبمجرد تصفحها شدتني لليلة كاملة وكانت من أجمل ما قرأت وقد تمكنت مخطوطته من رفع نير الأسي عن قلبي دفعة واحدة حيث قام صاحبها بإخراجي من ضجري وأنا أعيش مع كل حرف من حروفه لوجود القصص القصيرة الخالية من العوز الإبداعي مكاناً فسيحاً خلالها.

يفتخر الوفاء أنه أحد المتحليين به.. فقد كان وفياً لمبدعي وطنه حيث لم يغفل قلمه عن تأبين كل الشخصيات المبدعة فور رحيلها دون تمييز أو جهوية أمثال صديقه الشاعر الليبي الكبير علي الفراني والقاص خليفة الفاخري والشويهدى والمقهور وغيرهم من الشخصيات التي فضلت أن تعطي دون مقابل كأنها لم تسمع عن شيء اسمه الأخذ.

وتتميز أعماله بكثرة الإسقاطات ومن أكثر القصص التي استهوتني قصة (سقف شفاف) التي يصف فيها الشلالات بأنها دموع الجبل ثم يقول في مشهد مثير للغاية: "في قيامة الجمادات قال الجبل للفولاذ: تخرج مني وتخرني أيها الجحود، بسّ الرحم أنا.. ثم أطلق من سقف جمجمته حمماً على قيامة الأحياء".

وفي قصته (تجدد) يحاول أن يجد للكسول مبررا باستخدام القطن في إطفاء الحريق بعدما قلب بقية السجارة على ظهرها حتى وصل اللهب إلى القطن وخدمت تلقائيا.

وفي قصته (بذور العسل) يحاول جاهدا أن يحارب ظاهرة الغش.. ابتداء من الفلاح الذي باع الثمرة المعطوبة إلى صاحب المطعم الذي قام بطهيها للزبائن متطرقا لمربيّ النحل وتقصيصهم لأجنته وتغذيته بالسكر لإنتاج عسل مغشوش حيث يقول عن ذلك رامزا إلى الحرية: "فمرضت الناس ولكن عرفت أن سر الشفاء يكمن في تناول العسل الذي أنتجه نحل يطير".

وفي قصته (فوزان) وهي الطفلة اللقيطة التي ماتت أمام عيني والدها المنكر لأبوتها لها حيث يقول: "في إحدى المنعطفات كانت سيارة متهورة تقدم لها رصاصة الرحمة على طبق من ارتطام.. ثم يقول عن الأب الذي كان يشاهد ما يحدث: "كان يبتسم ابتسامة ذئبية ولكن تكشيرة التاريخ تعده بإخفاء قريب .

وفي قصة (هموم نظيفة) يقول للأخصائية الاجتماعية التي قامت بغسل همومه ثم سألته أين سينشرها فأجاب: "لا عليك همومي ساخنة.. ستجف تلقائيا دون نشر".  
وأما عن السعادة فرأيه مختلف: "لا نعصرها ولا ننشرها!.. فما أشبع أن ينعم الإنسان بسعادة جافة".  
وفي قصة (ورود بشرية) يصف سمسار السيارات بلقب فضيع عند شرائه سيارة البستاني: "لقد باع سيارته المتهالكة بثمن بخس فرضه عليه أحد نخاسي السوق".

ويبدو تأثره بالقرآن واضحا حينما تحدث عن فنيي الكهرباء وقطعهم للتيار: "بتروا التوصيلة وجعلوا الأسرة اليتيمة في ظلمات ثلاث، ظلام موت الأب وظلام مرض البنات وظلام الاحتياج.. وعند مرور الأطفال أمام الفندق، أبصر أصغرهم بستانيا يعمل هناك فظنه والده الذي مات قريبا فصاح مناديا: بابا.. بابا.. تفاع.. تفاع.. موز.. موز.. متذكرا ما كان والده يجلبه معه في نهاية الدوام.

وفي قصة (هوس المناقير) الطائران احتاجا لبعضهما للنجاة بعدما فقد كل واحد منهما جناحا بسبب الشجار فيما بينهما مشيرا إلى أهمية التعاون بين المختلفين للنجاة قائلا: "قبل أن يسقطا، التصقا ليستمر التحليق ولو برأسين وذيلين وأربع مخالب وجناحين بعيدين عن هوس المناقير".  
ونلاحظ دائما حرص القاص محمد الأصفر على انتقاء العناوين الملفتة للنظر مثل (ملح المطر - تناس - فوزان - كسر خصوصي - هوس المناقير) وقد قامت بالنشر له كل الصحف الليبية والعديد من الصحف العربية مثل العرب اللندنية وأخبار الأدب والحرية التونسية والقبس والجيل والصدى وغيرها.. متمكنا من الانطلاق بلا هوادة كعصفور نزار يغمد ريشه في عالم الأدب شاقا طريقه بعصامية وعفوية غير أبه بغمزات ولمزات المثبطين.

وللأصفر الكثير من الميزات الإنسانية فهو خفيف الظل إلى الحد الذي يجعل من الملل عرضة للسخرية بمجرد طرفة للباب الذي يفصل بينه وبين أصداده من المملين.. وهو دائما ضد الضد تخشى الحواجز دنوه منها.. متواضعا إلى الحد الذي يجعل أراذل الناس عندما يجالسونه يحسون أنهم هم المتواضعون.. يحب التواصل إلى أقصى الحدود، فرغم انشغاله الكبير إلا أنه لم يتغيب عن مجاملة الناس في مناسباتهم.. لم يقدم إلى قرائه عسلا مغشوشا كما يفعل أولئك الذين يحاولون أن يركزوا راية أسمائهم الباهتة فوق ذروة الإبداع الذي تمكن بسبب الغيظ من ترهاتهم أن يجعل القذف من أهون المكافآت التي يوجد بها دونما من.. بينما يتأبط التاريخ ممحاة الزمن خلف طياتة ليقتذف بما صاغوه لنا من تفاهة إلى مزيلة الاندثار.  
ومن ديدنه إلغاء القديم فهو أكثر من النهر تجدداً إلى الدرجة التي يأبى الرضا عن أعماله بمجرد مضي شهر واحد عليها كما يمتاز بقدرة على اختيار النص الذي ترغبه الصحيفة التي ينوي مراسلتها.

كانت هذه نبذة مختصرة عن الأصفر ذلك الغول البدائي الذي تلاً اسم في عالم التنكار.. أقدمها إلى قرائه العرب الذين لم تحظ عيونهم برويته مثلنا بعدما تحلقوا حوله تحلق الغلاف بكوكب الأرض الذي تمكنت النفايات من إحداث ثقب أوزوني جعلها تحس أن ثمة نهاية وشيكة سوف يتعرض لها الكون إن لم تتدخل الأنامل الداعية للسلام لكبح جماح الفناء الذي أصبحت خيوله تلوح في الأفق من أجل القضاء على كل ما هو جميل ورائع يحاول أن يرسم بالحرف كلمة يتضوع المسك من أردانها.

